النزاع بين الأهل

ابتلي ظاهر بأولاده، الذين كثيراً ما كانوا يطمعون به، ويثورون عليه، وخاصة ابنه عثمان الذي كان دائم الشغب على أبيه، ولكن ظاهراً كان يبدد ذلك الشغب بالحيلة حيناً وباستعراض القوة أحياناً أخرى، وبطرد الأبناء إلى خارج منطقة نفوذه في بعض الأحيان.

فقد تآمر عليه عثمان وعلي وحتى أخوه الناصح الأمين ووزير دولته سعد ثار عليه أيضاً وحاول أن يضم إليه ابن عمه (محمد العلي) قائد جيش ظاهر الذي فضح المؤامرة، ورفض التآمر على ابن عمه ظاهر.

ولكن هذه المؤامرات ما كانت تفت في عضد ظاهر الذي كان طموحه لا يقف عند حدود.. وكانت نزعته التحررية من النير العثماني لا تغيب عن ذهنه.

الإيقاع بعرب الصقر ومصرع الجهجاه

لم تعتد القبائل البدوية على الخضوع، فهي سرعان ما تعود إلى الفوضى والسلب والنهب كعادتها.. وقد استغل (عرب الصقر) فترة سوء العلاقات مع ظاهر فهاجموا المحمل الذاهب إلى الحج وانتهبوه بالاشتراك مع فرسان قبائل السردية وبني (كليب) وبني (عقيل) مما أثار ظاهراً.. فحبك خطته على أن يسترضي القبائل البدوية باستثناء (قبيلة الصقر) التي صمم على استئصال شرورها وجذورها، وخاصة بعد أن قتلت حفيده (الجهجاه) ابن ابنه (عثمان) وكان فتىً محبوباً لديه وقد قتل في المعركة مع الصقريين، فجزع جده عليه جزعاً شديداً، ولما علم أن قبيلة (الصقر) هي التي قتلته التهب حزناً عليه وأخذ يمزق ثيابه ويعفر وجهه بالتراب ويبكي ثم ركب وأمر عساكره أن تركب، وأقسم أن لا ينزل عن جواده حتى يأخذ بثأره، ولشدة ما أظهر من الحزن لم يستطع أحد أن يمسكه أو يعترضه.

وسار بعسكره إلى أن أدرك (الصقر) بغتة وأصلاهم حرباً شرسة فقتل الأطفال والنساء والشيوخ وبقر الحوامل وقتل أكثر من سبعة وعشرين من كبار مشايخهم حتى جعلت الخيل تخوض في الدم، وما نجا منهم إلا من هرب واختفى في المغاور والكهوف. وعاد ليقيم عزاء للجهجاه ما سمع بمثله إلا عند الخلفاء والسلاطين وقد دام العزاء أربعين يوماً ليلاً ونهاراً، وكانت النساء تخرج كل يوم صابغة أيديها وأرجلها بالنيلة ويحملن السيوف المنكسة ويرقصن حزينات ويندبن